بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمة

بقلم الشيخ المحترم الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد

حب الأدب وراثة فى الأسرة الأباظية . تمتلىء دورهم بالكتب والدواوين . كما تمتلىء بالكتاب والشعراء . وهم أنفسهم يكتبون وينظمون . ولا يخلو جيل من أجيالهم من كاتب أو شاعر أو راوية أو أديب .

كان عميدهم فى عصره ـ سليمان أباظه باشا ـ يصوغ الشعر السهل ويحوك النثر الجزل . ويكتب الرسائل على النسق البديعى فلا يفوقه كاتب رسالة فى عصره . ومن أمثلة رسائله الأدبية رسالة كتبها إلى صديقه العالم الأزهري الكبير الشيخ عبد الهادي نجا الابياري . استهلها بأبيات يقول فيها :

أسُطُورٌ ما قد أرَى أم خُدُورُ
تتراءى منها الحِسانُ الحُورُ

أم قَنَايا زُهرٌ تُريكَ ابتِسَاماً
مِن شِفَاهٍ لُعسٍ لَهُنَّ عَبيرُ

وَفُصُولٌ يَدُ النُّهَى حَبَّرَتْهَا
فَتَحَلَّى بوَشْيِهَا التَّحبِيرُ

أم عُيونٌ حُورٌ كَدَارَاتِ مِسكٍ
دَارَ حُسناً من حَولِهَا الكَافُورُ

ثم قال : « ... وما كنت اخال أن المسك يشم بالنظر . ولا أن سطوراً تربو على الجواهر والدرر . ما بين نظم يتردي بعقود الخرد الحسان . ونثر يهزأ بمنثور وروده بين زرود ونعمان . فهو الممتنع إلا أنه سهل . والرقيق الحواشي إلا أنه الجزل . فألفات كأنها قامات القيد في الجهر . ونونات كأنها زوارق من عنبر أثقلتها حمولة من الزهر . كيف لا وهو من خضم الأدب . من رفع علم كل علم وهبي أو مكتسب . سماء فضل ما طلعت شموس أفكاره في دياجي المشكلات . لا وقال مصاقع الخطباء كيف وقد كانت بالأمس من المعضلات »

ومن شعره في رثاء أخيه السيد أباظه باشا :

وَلو أنَّ إظلامَ اللَّيالي من الأَسَى
وَوَقْعَ الخُطُوبِ السُّودِ مَا طَلَعَ الفَجرُ

وكان حافظ – شاعر النيل – يرويه ويعجب به . ويقول فى مدح قائله ، ويشبه بلدته « طاهرة » قبلة الأدباء بالبيت والقدس :

سُلَيمانُ ذَكَّرتَ الزَّمانَ وَأَهلَهُ
بِعِزِّ سُلَيمانٍ وَإِقبالِ دُنيَاهُ
تَحُلُّ بِحَيثُ المَجدُ أَلقَى رِحَالَهُ
(فَطَاهِرَةٌ) وَالبَيتُ وَالقُدسُ أَشبَاهُ

وكان من شيوخ هذا البيت الذين اشتركوا فى حركة هذا الجيل كاتب خطيب ، يكتب إلى الصحف ويخطب فى مجالس عصره النيابية فيتردد كلامه على الألسنة . ويتحدث به القراء فى أنحاء القطر كله وهو إسماعيل أباظه باشا رحمه الله .

واتصلت هذه الوراثة فى غير فجوة بين الشيوخ والشبان ، أو بين أبناء زمان وأبناء زمان ، فلا تزال تلقى من أبناء هذا البيت العريق فتى ناشئاً ، وكهلا ناضجاً . وشيخاً وقوراً ، يحدثونك فى الأدب ويروون لك طرائف الشعر ، ويسمعونك من جيد المحفوظ وصحيح الشواهد ، ما يدل على ولع بالدرس وتوسع فى الاطلاع ، ولا أذكر أننى لقيت فى البرلمان شيخه القاضي الأديب « جمال الدين بك أباظه » فسمعت منه حديثاً في غير الأدب واللغة . أو طرائف المفردات

والتعبيرات ، كلما استرحنا من حديث القوانين وما إليها ، وناهيك بما نقرؤه لفكري ، وعزيز ، وثروت ، من رصين الشعر وطريف المنثور .

وصاحب المعالي الأستاذ إبراهيم دسوقى أباظه باشا هو الحلقة الوسطى بين جيلهم السابق وجيلهم اللاحق ، وهو نموذج لخير ما يؤثر عن وجوه هذه الأسرة الكبيرة من حب للأدب ، ومشاركة فيه ، وعطف على الأدباء :

بل أحسبه قد أخذ نفسه بالزيادة على محصولهم من كل تراث نفيس وأن يأتى بجديد إلى جانب كل تليد ، فشمل عطفه الأدباء فى حياتهم وأدبى فشمل ذكراهم بالعطف بعد الممات ، وفى هذه الصفحات آيات على الكرم الذي يتجاوز الدنيا إلى الآخرة ، فيسع حافظاً ومحرماً فى عالم الذكرى ، كما وسعهما فى هذه الدنيا ، ويقول فيهما ما يقوله الكرام من سخى الثناء وجميل الكلام ، ولا إخال أن حافظاً فى وفائه شيع بوفاء أجمل من وفائه ، ولا أن حافظاً فى مولده قوبل بترحيب أوفق من ترحيبه ، حيث وصف ذلك المولد (الشعري) قائلا : (ولد ... فى ذهبية كانت راسية أمام ديروط على النيل لأعمال كانت تقام باشراف أبيه ، ولعمري إنه لميلاد جدير بشاعر ، ولو كنت شاعراً لزعمت أن ميلاد شاعر النيل فى حضن النيل ، وفى مهد من جمال الطبيعة الساحر

كان له تأثير فى شاعرية حافظ المبكرة ، وفى أنه فتن بوطنه ، وبرّح به هواه ، فحمل قيثارته يتغنى بعظمته ويبكى لمصابه ، ويهيب بأبنائه لانقاذه ، ويذكره بماضيه وحضارته ، حتى استحق أن يلقب بشاعر النيل ويكفيه ما فى اللقب من إعجاب وتقدير وتبجيل) .

بل أحسب أن أديبنا الحسيب يذكر الحسب ولا يحرص على الحساب ، أو يذكر أنه صاحب دار حين يذكر أنه صاحب كتاب ، فهو يعطى من سماحته هنا كما يعطى من سماحته هناك ، ويستقبل ضيوفه على صحفه كما يستقبلهم على صحافه ، وكلهم فى رحابه جدير بالحفاوة جدير بالاغضاء .

وفضل أديبنا فى إقباله على صناعة القلم أنه قد أوجب حبها على نفسه ، ولم يوجبها عليه جاه يبتغيه ، أو كسب يسعى إليه . فانه قد ولد فى مهاد الجاه والحسب ، واستغنى بالموروث عن كل رزق مكتسب . فتعلق بصناعة القلم فى مقتبل صباه ، وشغلته عما يشغل الشاب السرى فى لهوه وهواه ، فكتب فى المدرسة ، بل كتب وهو يستريح من دروسها فلما فرغ ذات سنة من امتحانه . وأذن له والده الكريم فى رحلة يستريح بها من عنائه ، ذهب الى القسطنطينية فلم يشغله البسفور ومغانيه ولم يفتنه الشط الذهبى وغواديه ، ولكنه تناول القلم ليكتب إلى صحف مصر بما سمع وعلم ، وكان ما سمع وعلم جهداً يستغرق ساعات الصحفي

المشتغل بالبحث والمراسلة ، لأنه ينقل الى العالم ما كانت تعانيه الدولة العثمانية يومئذ من حروب البلقان .

إن للأدب لفخراً ، وان للبراعة لسحراً ، وان أديبنا الحسيب ليثبت هذا السحر بدليله الذي لا يجاريه فيـــه كل صاحب براعة ، ولا يلحقه فيه كل عاشق لهذه الصناعة ، لأنه السحر الذي لا تصرفه عن القلب شواغل المنصب وهي متواصلة ، ومناعم العيش وهي موصولة وانه لسحر مبين ؟

عباس محمود العقاد